

قصة هذا الكتاب

---

ذات يوم شتاء ١٩٧٥ وكانت الغيوم الداكنة بدأت تملأ سماء العلاقات اللبنانية - الفلسطينية اتصلت بالزميل بسام ابو شريف رئيس تحرير مجلة « الهدف » التي تنطق باسم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين اطلب منه ان نلتقي .

ولقد اعتدنا ان نتصل دائما بالزميل بسام لنستفسر عن نبأ او نتحقق من حادثة او نسمع الرأي في تحليل يتناول من قريب او من بعيد الجبهة الشعبية .

وعندما التقينا في مكتبه الكائن في الطبقة الاولى من احدى بنايات حي المزرعة في بيروت افترض للوهلة الاولى ان الغرض من اللقاء هو الاستفسار عن امر ما او مناقشة وجهة نظر ما . لكنني عندما طرحت عليه الفكرة التي جنّت من اجلها ارتسمت على محياها المشاعر الناشئة عن الاستفهام والتعجب ثم قال بعد انتهاء جلسة استغرقت حوالي ساعة : هل انت مسافر هذه الايام ؟

واجبته بان طبيعة عملي في صحيفة « النهار » ( صحيفة يومية تصدر في لبنان منذ ٥١ سنة ) تتطلب ان اكون دائما على سفر ولكنني على استعداد لتجميد السفر لمدة ثلاثة اشهر خصوصا انني منذ سنوات طويلة لم احصل على اجازة . وفي خلال الاشهر الثلاثة يمكنني انجاز الفكرة التي طرحتها . واتفقنا على ان يصلني الرد في غضون اسبوعين . وودعت الزميل بسام . وبعد يومين سافرت الى القاهرة في مهمة صحفية كعادتي في السفر مرة او مرتين او ثلاث مرات في الشهر . وبعد وصولي الى القاهرة بيضع ساعات علمت من اتصال هاتفي اجرهته مع عائلتي من القاهرة ان الزميل بسام اتصل لابلاغي الموافقة على الفكرة وانه يرى ان يبدأ التنفيذ بعد اسبوع . وعدت الى بيروت لابدأ .

كانت الفكرة التي طرحتها على الزميل بسام تتلخص في الآتي :  
هنالك اشخاص تاريخيون قد يكون من الصعب عليهم كتابة مذكراتهم وهم في خضم العمل النضالي . كذلك انه من الصعب على هؤلاء ايضا ان يتقاعدوا في سن معينة ويتفرغوا لكتابة المذكرات مثل غيرهم من زعماء السياسة ورجال الفكر والفرن والمسرح واصحاب التجارب عموما .  
وفي ضوء ذلك ما الذي يمنع من أن يبادر كاتب وينوب عن هؤلاء في كتابة

ذكريات تجمع بين السيرة الذاتية والمذكرات معا وبالتحديد ما هو متاح من هذه المذكرات .

والدكتور جورج حبش هو واحد من هؤلاء . وبما ان احدا منكم ككتاب وصحفيين ملتزمين ومقاتلين لن تقدموا على مثل هذا الامر ، واذا اقدمتم فانكم ستكتبون بالحد الاقصى من التحفظ باللغة الحزبية والملتزمة ، فما رأيك لو تقترح على الدكتور حبش أن أقوم بالمهمة فأجري جلسات معه اسأله ويجيب وبعد ذلك نقوم بتفريغ هذه الجلسات ونعدها للنشر في كتاب . وسألني الزميل بسام أن اضع الاسئلة التي سأطرحها على الدكتور حبش في حال موافقته على الفكرة لاننا بذلك نساعد على توضيح برنامج الجلسات وقلت له : تطلب مني اسئلة ؟ الحقيقة انني لا ادري نوع الاسئلة التي يمكن ان اضعها . انها عن كل مراحل حياة الدكتور حبش . تصور انني صحفي منذ سبع عشرة سنة . ومنذ سنوات ونحن نكتب عن الجبهة الشعبية وعن الدكتور حبش . نكتب عن العمليات الفدائية التي تحدث وعن الانقسامات التي تحدث داخل الجبهة الشعبية وداخل حركة القوميين العرب . نكتب عن ليلى خالد التي خطفت الطائرة نتيجة ايمان بمبادئ وضعها الدكتور حبش . ونكتب عن الازمات التي حدثت في العالم العربي وكان الدكتور حبش في شكل او آخر طرفا فيها ...اننا نكتب عن كل ذلك ونحرق الاخبار المتعلقة بنشاطات الجبهة الشعبية وامينها العام ولكننا لانعرف تماما قصة جورج حبش ولانعرف دوافع الانقسامات . وقبل ذلك لا نعرف كيف اجتمع الفلسطيني مع الاردني مع الكويتي مع السوري في الجامعة الاميركية في بيروت . وهذا على سبيل المثال لا الحصر . واذا كنا نحن الذين نعمل في حقل الصحافة والكتابة لانعرف تماما فما بالك بالقراء العاديين الذين ينتظرون منا ان نكتب لكي يقرأ الواحد منهم ما لا يعرفه .

واضفت مخاطبا الزميل بسام ابو الشريف : انني لن اترك سؤالاً لا يمكن ان يخطر في البال الا واطرحه على الدكتور جورج حبش . وله ان يجيب او لا يجيب . ويهمني في الوقت نفسه التأكيد على ان الهدف من الاسئلة لن يكون الاحراج ولا التعجيز وانما استزادة المعرفة .  
وبعدما نقل الزميل بسام الى الدكتور جورج حبش فكرتي ، وافترض أنه

كزميل وككاتب زكاها ، علما بأن الدكتور حبش لا يساير في امر غير مقتنع به ، اتصل لابلاغي الموافقة . وعندما اتصل كنت مسافرا .

وعندما عدت وتبلغت موافقة الدكتور حبش على الفكرة التي طرحتها بدأت استعد للتنفيذ معتزا بتقويم لي سمعه الزميل بسام من الدكتور جورج حبش ونقله لي مع الموافقة على الفكرة .

كانت « عدة » العمل عبارة عن مسجل وبضع شرائط وبطاريات وضعتها كلها في حقيبة . وعلى رغم انني من سكان بيروت منذ خمس وعشرين سنة الا انني لم اتمكن من تحديد المكان الذي نقلني اليه في منتصف احدى ليالي الشتاء الحزينة احد اعضاء الجبهة الشعبية الذي تم ايفاده الى مكتب الجبهة الشعبية حيث كنت انتظر لكي يرافقني الى المكان الذي سأجري فيه المقابلة الاولى مع الدكتور حبش . لقد سلك الاخ الذي رافقني طرقات وجدت مع الدوران نفسي لا اعرف اين هي بالتحديد . وخلال نصف ساعة كنت في شقة من احدى بنايات بيروت اطرح على الدكتور حبش السؤال تلو السؤال وكنا نقاوم موجة البرد القارس بكاسات الشاي التي يأتينا بها احد اعضاء الجبهة من عناصر حماية الدكتور حبش .

وكانت تلك الليلة عظيمة . فللمرة الاولى اسمع الدكتور جورج حبش - وكان في تلك الايام شاغل الدنيا وصحافة العالم بسبب جو الذعر الذي تركته العمليات الفدائية التي ارتبطت باسمه وباسم المخطط الدكتور وديع حداد زميله في الدراسة والعمل الثوري - يروي قصة حياته .

ولقد اسرتني رقة هذا القائد المتميز وتواضعه والدقة المتناهية في التعبير . وفي اليوم التالي اتصلت بالزميل بسام احاول منه معرفة المكان الذي جرت فيه مقابلتي مع الدكتور حبش . وقال لي انها جرت في الشقة التي يسكنها مع عائلته وهي تبعد ثلاث دقائق بالسيارة من مكاتب مجلة « الهدف » . وقلت له لقد ظننت انها جرت خارج بيروت لان مرافقي سلك طرقات كثيرة واستغرقت الرحلة نصف ساعة .

واجابني : تلك هي « بيروقراطية الثوريين » ، وتلك هي الطقوس الامنية المتبعة .

وتكررت بعد ذلك اللقاءات انما بشكل غير مبرمج ، ومن دون تحديد مواعيد . الذي كان يحدث هو انه لمجرد ان يتوافر وقت لدى الدكتور حبش

يتصلون بي فأتوجه للقائه ومعني الحقيبة التي في داخلها آلة التسجيل والاشرطة والبطاريات . وكثيرا ما كانت اللقاءات تلغى قبل دقائق من الانعقاد لان الدكتور حبش سافر فجأة الى احدى الدول العربية او الى احدى دول اوربوا الشرقية .

وفي ضوء ذلك فان تسجيل اللقاءات استغرق بضع ساعات خلال بضعة اشهر .

وفي كل جلسة كان الدكتور حبش يزداد تألقا ويمعن في التواضع وفي التعبير بالكثير من الدقة الى درجة انه تمنى اكثر من مرة حذف بعض العبارات لانه شعر ان فيها ما يمكن ان يחדش مشاعر رفاقه الذين انقسموا او احدثوا تجمعات ضده .

وكانت الاماكن التي تمت فيها اللقاءات التالية مختلفة . ولم يحدث ان التقينا في مكان واحد مرتين . اللقاء الاول في بيت الدكتور حبش واللقاءات الاخرى في بعض مكاتب الجبهة الشعبية في المزرعة والفاكهاني . وكل مكتب له نكهته ويتميز عن الآخر .

... واعتقد ان احد اللقاءات تم داخل مخيم . وكلها تمت ليلا . وعندما وصلنا في التسجيل الى مراحل متقدمة كان الوضع في بيروت بدأ يتوتر . ثم اندلعت الشرارة التي احرقت الوطن والقضية والمخيمات والمناضلين . ولم يعد من الممكن ان نواصل التسجيل هذا مع الاخذ في الاعتبار انه اذا كتب للقاءات ان تتجدد فان الاسئلة فيها ستدور حول اكثر اللحظات تفجعا في حياة العمل الفلسطيني .

ومنذ ذلك الحين اي منذ العام ١٩٧٦ وحتى قبل بضعة اسابيع وانا قلق على الاوراق التي تحمل نتيجة الاحاديث الطويلة مع الدكتور حبش . وسبب قلقي ليس فقدان الاوراق حيث ان هنالك نسخة عنها محفوظة في خزانة مصرف في اوربوا وان الاشرطة مقفل عليها داخل خزانة مصرف في بيروت كان من بين المصارف القليلة التي سلمت من السرقة والنهب . ان سبب قلقي هو الخوف من ان انشر قصة الدكتور جورج حبش وذكرياته كما سجلتها معه ، في زمن لا يتمكن فيها الدكتور جورج من قراءتها ، خصوصا انني عندما فكرت بالتسجيل والكتابة كان همي الاساسي ان يكون صاحب الذكريات اول الذين يقرأون .

ويبقى سؤال : لماذا النشر الآن وما القصد من تعبير « حكيم الثورة » ؟  
والجواب عن ذلك هو ان قراءة قصة الدكتور جورج حبش ضرورية الآن  
بمثل ضرورتها قبل بضعة اعوام . وهو الى ذلك يمثل في الزمن الفلسطيني  
المفجع الراهن ما يمكن اعتباره الموقف الذي يمكن ان يحسم اشياء كثيرة .  
فهو اذا تخطى عن تأييد القيادة الشرعية التي يمثلها ياسر عرفات فان هذه  
القيادة لاتعود قادرة على مقاومة الامر الواقع الذي يحاولون فرضه عليها .  
وهو اذا تمسك بتأييد هذه القيادة فان مفاجآت كثيرة قد تشهدها الساحة  
الفلسطينية .

وفي الماضي كان الاسم الحركي للدكتور جورج حبش هو « الحكيم »  
وذلك على اساس انه طبيب . اما الآن وفي ضوء ما يحدث للثورة الفلسطينية  
فان كلمة الحكيم مأخوذة من حكمة .

ما الذي سيفعله « حكيم الثورة الفلسطينية » ؟

في انتظار الاجابة نقرأ معا قصته .

وتكرارا ان ما اسجله في الصفحات التالية في شكل سؤال وجواب هي  
سيرة وذكريات .

ولعل وعسى يكون التوفيق حالفني .

## فؤاد مطر

لندن - تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٨٢ .